

وصف الطبيعة الساكنة وجماليتها

في شعر طرفة بن العبد

**The Description of Silent Nature and Its
Aesthetic in the Poetry of Tarfa ibn al-Abd**

م.د. محمد إبراهيم أحمد

Lect. Dr. Mohammed Ibrahim Ahmed

جامعة سامراء / كلية التربية

Samarra University /College of Education

E-mail: mmasm20the@gmail.com

الكلمات المفتاحية: الطبيعة الصامتة، طرفة بن العبد، مظاهر الطبيعة في شعره.

Keywords: Silent Nature, Tarfa ibn al-Abd, Aspects of nature his poetry.



المخلص

للطبيعة ارتباط وثيق بالأدب وفي نتاج الشعراء، وهم يصوغون مشاعرهم تجاه تلك التفاصيل التي تلونت بها البيئة من جبال ووديان وأنهار وأشجار وأزهار وصحاري وحبّات الرمل، وكذا الأمر تجاه السماء وهي تلتع بالنجوم والكواكب والشهب، فتضمنت تلك الرؤى تقابلات بين مشاعر الحب والغزل وبين المعاناة والشكوى والألم، وهذا ما سيقوم البحث على محاولة رصده من ميزات اجتمعت في قالب شعري انبثق من قلب الجزيرة العربية ليطلق أسماعنا مما نظمته شاعر له ذكر جميل احتفظت به السير الشاعرية لمدد زمنية طويلة، وهو طرفة بن العبد الفتى القتيل أو الشاب القتيل، فعلى الرغم من أنه لم يعمر طويلاً، لكنّ شاعرنا كان ظاهرة فنية، ولنبوغه الشعر في سن مبكرة أسهم في أن يقوى عوده ويصح عموده، نجم عن ذلك مزية عكست القيمة الفنية لذلك العصر، الذي مهما دُرِسَ وجد الباحثون خبايا وميزات بحاجة للدراسة والتوسع في البحث.

Abstract

Nature has a close connection with literature, and it is reflected in the works of poets as they express their feelings toward the details that paint the environment, such as mountains, valleys, rivers, trees, flowers, deserts, and grains of sand. Similarly, the sky, glittering with stars, planets, and meteors, is also depicted. These visions often include contrasts between emotions of love and passion, and feelings of suffering, complaint, and pain. This research will attempt to capture the features that converge within the poetic form originating from the heart of the Arabian Peninsula, reaching our ears through the verses of a poet whose name has been beautifully preserved in poetic history for a long time: Tarfa ibn al-Abd, the slain youth. Although he did not live long, our poet was a unique artistic phenomenon, and his early poetic brilliance helped solidify his stature and reinforce his artistic foundation. As a result, this reflects the artistic value of his era, which, despite being studied extensively, still holds hidden gems and features that need further exploration and analysis.

المقدمة:

الطبيعة ملهمة الشعراء في العصر الجاهلي:

حملت المدونة الشعرية محاكاة للطبيعة ورسم مفاصلها لاسيما في الشعر الجاهلي، بوصفه يمثل الطريق الممهد للكثير من أوصاف الشعراء فيما بعد هذا العصر، فقد تهيأ للشعراء من تلك المظاهر المتنوعة أسباب القول، واستهوته للتعبير عما يحيط به من مكونات الحياة، وتفاصيل الطبيعة بأسلوب أدبي، فكان ذلك ظاهرة جمالية مؤثرة في نفسية الشاعر، فكانت الطبيعة من أقوى العوامل في انفعال الشاعر وتحريك مشاعره وأحاسيسه، فالشاعر متسلح بذائقة فنية ورهافة حسية أوجدت تلازماً بين الشاعر والبيئة المحيطة به، فشغف الشعراء بتفاصيل الطبيعة، فكانت التنوعات الجمالية في نظر الشاعر والتقليل بين صورها قد أضفى تشذرات متلونة بألوان مختلفة، تنعكس من خلالها نفسية الشاعر وهو يطالع تلك المتغيرات لتمهد له استثمار الطبيعة في إبراز صورة معبرة عن ذاتية الشاعر وأفكاره، وأن للطبيعة جمال أخاذ، فكان الشاعر الجاهلي أكثر قرباً وتعلقاً ببيئته الصحراوية، كما هو معهود أن الجاهلي في بيئة صحراوية قائمة على التنقل المستمر، وبما أن تلك البيئة مفتقرة لمظاهر الدعة، والنغم اللطيف، من أشجار وأزهار وروضات غناء، إلا أن العربي استطاع أن يتكيف ويعيش ويتألف معها، على الرغم من قساوتها وخشونتها فأبدع صوراً كانت تعكس تمكنه من تطويع تلك البيئة لمفهومه الخاص في التعبير عما يريد بطريقة متقنة وفريدة، لذا سيكون الحديث عن توافر مظاهر الطبيعة في شعر طرفة بما توفر من تلك التكوينات في شعره.

أهمية الدراسة:

إن دراسة الطبيعة في شعر طرفة بن العبد على الخصوص وفي الشعر العربي على العموم له أهمية كبيرة، سواء كان من الناحية الجمالية أو الفكرية، فللطبيعة أثر في صقل مشاعر وأحاسيسه، وأنها مصدر إلهام وتأمل، وأنها المجال الخصب للتأمل في رقد الشاعر بالأفكار التي تسهم في رسم صورته، فينتج عن استلهاام الطبيعة إبراز للجمال بوسائل بلاغية تعكس قدرة الشاعر الفنية المعبرة، فضلاً عن ذلك كانت الطبيعة بمثابة المرأة للذات الشاعرة، والانتماء والهوية الثقافية التي ربطت الشاعر ببيئته، فكانت تلك الأدوات تمنح الروح في مد هذه الدراسة من السير على حبات تلك البيئة واستنطاق مفردات الشاعر لتحيل لنا صوراً جميلة، وهناك الكثير من الدراسات التي اهتمت بالطبيعة، منها ما كانت بصورة كاملة للتعبير عن الطبيعة ومختلف العصور، على سبيل المثال لا الحصر، دراسة شعر الطبيعة في الأدب العربي للدكتور سيد نوفل، ومثلها أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي للدكتور أحمد محمد الحوفي، والطبيعة في الشعر الجاهلي للدكتور نوري حمودي القيسي، ومنها أيضاً شعر الطبيعة في الأدبين الفاطمي والأيوبي

للدكتور بهاء حسب الله، ومنها ما جاء ضمناً في دراسته، وكذلك أفردت الكثير من الدراسات الأكاديمية والبحوث التي نظمها الأساتيد، فكل ما سبق كان دافعاً للدراسة في هذا الموضوع ولا سيما عند شاعر له قيمة أدبية ومكانة شعرية في شعرنا التليد.

مظاهر الطبيعة الصامتة في شعر طرفة:

لم يخل شعر طرفة من وصف مظاهر الطبيعة شأنه شأن غيره من شعراء عصره الذين أخذوا بأسباب القول والدافع الشعري في استثمار بيئتهم الصحراوية التي كانت " تملأ قلبه ونفسه وكيانه، وتوجه تفكيره وعاطفته وخياله، فكانت طبيعة بلاده رهيبة تتجلى له دون حجاب، فيراها سافرة بكل ما فيها من قوة وحرارة، ويعيش أبداً معها " (الفاخوري، ١٩٨٦م، ص ٩٤)، فهي تمثل وسيلة الاستمتاع بجمال الطبيعة والحياة، إذ يجد فيه القارئ ما استتر وما ظهر من جمالها مصوراً مفسراً، فكان ذلك ما يعبر عن مسرة النفس وسلوى الحزين يجد فيه الأديب متنفساً لهمومه وأكداره، ويجد فيه الفرح صورة لشعوره (الشايب، ١٩٩٤م، ص ٨١) ' فالشاعر وهو يتحدث عن مظاهرها بواقعية، ويصوغ لها الكلمات النابضة مع دقات قلبه بأسلوب رشيق وسلاسة، فبيئته واضحة لا تحتاج إلى التزييق أو التأمل العميق، فكان الشاعر يضمن صور الطبيعة في شعره ويشد ازرها بجزئياتها فكان للطبيعة أثر جليّ وساعد قويّ في نتاجات الأدباء (عيسى، د.ت، ص ١١٨) ، وبما أن حياة العرب كانت قائمة على الحل والارتحال والتنقل سعياً وراء الكلاً ومنابت العشب ومورد الماء (قناوي، د.ت، ١/٢٢٤)، أضفى هذا التنقل صوراً طبيعية متشذرة هو " من أروع ألوان الجمال التي تهش لها النفس، وتستجيب لها في فرحة وانطلاق " (قطب، د.ت، ص ١٤٣)، ومن أكثر ما دار على ألسنة الشعراء الجاهليين ذكر الطلال فأفاضوا بالحديث عنها يقول طرفة من الطويل (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ٢٣):

لِحَوْلَةِ أَطْلَالٍ بِرُزْقَةٍ تُهَمِّدُ تَلُوحُ كَبَاقِي الْوُشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ

ترى أن البيت ممتلئ بالحديث عن الديار وأطلالها والأماكن التي تعلق قلبه بها وتبينت كالوشم الظاهر في الذراع والذي تثبت بالنقش، والأطلال هي " أهم أوصاف الطبيعة الساكنة وأكثرها في شعرهم تناولاً " (قناوي، د.ت، ١/٢٢٥)، فكان حديثهم عنها سمة بارزة حتى أن ابن قتيبة عدّها من الموجبات على الشعراء الالتزام بها بقوله " وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أنّ مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار " (ابن قتيبة، ١٩٨٧م، ص ٣١)، أضحت صور الطلل من موضوعات الحياة اليومية للشعراء فكان حديثهم يتأتى من " أن ذوق الشاعر وتجربته الذاتية كانا وراء اختياره لموضوعات صوره وتشكيلها في أوضاع مختلفة تساق جميعاً نحو المواءمة والاتساق " (الرباعي، ١٩٨٠م، ص ٤٥)، فهذا التعلق بالطلل ناجم من زخم الذكريات

المرتبط الأرض والمنازل والديار حتى لتصل إلى قوة كبيرة في رفض ما يصيب تلك الديار من بلى وانحسار معالمها واندثارها إذ يقول من الطويل (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ٨٩):

لِهِنْدٍ بِحَزَانِ الشَّرِيفِ طُلُوءٍ تَلُوحُ وَأَذْنَى عَهْدِهِنَّ مُحِيلُ
وَبِالسَّفْحِ آيَاتُ كَأَنَّ رُسُومَهَا يَمَانٍ وَشَتُّهُ رَيْسُدَةٌ وَسُحُولُ

التجربة الذاتية لطرفة أمدته بالقدرة على ترسيخ المفاهيم التي تعطي صورة فنية رسمت بريشة رسام حذق حتى غدت ناطقة بلا لسان ووهبت تلك الأبيات الروح للجمادات وكأنها تتلفظ الكلمات بلسان مفوّه.

ونجد في حديثهم صوراً أخرى، كتشبيه الهودج التي تحمل النساء أثناء التنقل بالصحاري بالسفن التي تمخر عباب البحر، وتشق طريقها بين أمواجه، لتبغي غايتها التي تريدها كقول طرفة من الطويل (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ٢٤-٢٥):

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوءَ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوْصِفِ مِنْ دَدٍ
عَدُولِيَّةٍ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْرُومَهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التَّرْبُ الْمُفَايِلُ بِالْيَدِ

وتتنوع الوصف عنده فشبه عنق ناقته الطويل بسكان الزورق لتكتمل الصورة وتبرز بدقة الوصف (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ٣٦):

وَأَتْلَعُ نَهَاضٌ إِذَا صَعَّدَتْ بِهِ كَسْكَانَ بُوصِيٍّ بِدِجْلَةٍ مُصْعِدِ

وبعد يتنوع الحديث فيأخذنا طرفة بصورة للحديث عن الأشجار وتشبيهاته المميزة كمثل تشبيهه لقلوب الطير في عش العقاب بنوى التمر اليابس بقوله من الطويل (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ١٤٦):

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ فِي قَعْرِ عُشِّهَا نَوَى الْقَسْبِ مُلْقَى عِنْدَ بَعْضِ الْمَادِبِ

هذا التلون الفني في الخلط بين صور الطبيعة أخذ الشعراء ليطوفوا بين فيا فيها لتمتج طاقة تعبيرية لأعطت جمالاً وهم يجمعون بين الشجر والحيوان فقد شبه طرفة صدور الخيل بأعناقها الطويلة بجذوع النخل التي ألقى عنها قشرها في الطول والجذع إذا شذب بدا أطول وهي كذلك الخيول بدت بأعناق طويلة فيقول من الرمل (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ٧٨):

وَأَنَافَتْ بِهَوَادٍ تُلُوعٍ كَجُذُوعٍ شَذِبَتْ عَنْهَا الْقُشُرُ

وللرياض ذكر لا يخفى وكما يذكر ياقوت الحموي أنها مئة وستة وثلاثون روضة (الحموي، ١٩٧٧م، ٨٣/٣) ذكرها الشعراء في عدة مواقف ومنها يذكر طرفة روضة دمي (الحموي، ١٩٧٧م، ٨٩/٣)، من الطويل (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ١٥١):

فَرَوْضَةٍ دُعْمِيٍّ فَأَكْنَفُ حَائِلٍ وَقَفْتُ بِهَا أَبْكِي وَأَبْكِي إِلَى الْعَدِ



وكذلك البرقة وهي لبني دارم (الحموي، ١٩٧٧م، ١/٢٩٣) والتي افتتح بها معلقته من الطويل، وقد مر ذكره (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ٢٣):

لِحَوْلَةٍ أَطْلَلْ بِبَرْقَةٍ تَهْمَدُ تَلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
ومن خلال تلك الأوصاف نجد أن طرفة شأنه كغيره من الشعراء فقد رسم تلك اللوحات الفنية وهو يتذوق سحر جمال الطبيعة وأحس بها ذوقاً مرهفاً وبلاغة مفعمة بالتميز الشعري.
وللمطر شأن بين المظاهر الطبيعية السماوية الأخرى التي أوردها الشاعر وهو يصوغ أبياتاً في تصوير المطر لتأخذ دوراً مبدعاً وهو يختار بذكاء الوقت الذي يتناسب مع الجود والكرم حينما يكون هناك حاجة لبذل المعروف وقت الشحّة ونشّ الغدران (أبو سويلم، ١٩٨٧م، ص ١٨٣)، فينقل تلك الصورة من الطويل (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ١٣٦):

إِنَّا إِذَا مَا الْغَيْمُ أَمْسَى كَأَنَّهُ سَمَاحِيْقُ ثَرْبٍ وَهِيَ حَمْرَاءُ حَرْجَفُ
وَجَاءَتْ بِصُرَادٍ كَأَنَّ صَقِيْعَهُ خِلَالَ الْبُيُوتِ وَالْمَبَارِكِ كُرْسُفُ
وَجَاءَ قَرِيْعُ الشَّوْلِ يَرْقُصُ قَبْلَهَا إِلَى الدِّفْءِ وَالرَّاعِي لَهَا مُتَحَرِّفُ
نَزْدُ الْعِشَارِ الْمُنْقِيَاتِ شَظِيْئُهَا إِلَى الْحَيِّ حَتَّى يُمْرِعَ الْمُتَصَيِّفُ
تَبَيُّتُ إِمَاءِ الْحَيِّ تَطْهَى قُدُورَنَا وَيَأْوِي إِلَيْنَا الْأَشْعَثُ الْمُتَجَرِّفُ

يصور طرفة في هذه الأبيات تلك العلاقة الحميمة بين أبناء هذه القرية، وقيام الإماء بالسهرة لأجل إنضاج الطعام غير مكترثات للعناء والتعب وتقديم ذلك الطعام بعدما حل الجوع بالناس، وأن الأرض خلعت رداءها الأخضر واجدبت الأرض وانقطع المطر واشتدت برودة السماء وصفرت الرياح ببرودتها، وجاءت السحب التي لا تسقط المطر بل بعثت كرات الثلج الأبيض وكأنها أصواف قطن امتلأت بها الأرض وغطت المنازل لتشيخ بذلك اللون الأبيض، إنها صورة قاسية البرودة لكنها دافئة المعنى نابغة من عادات وقيم اعترى العرب بكرمهم وسخائهم.

إن ارتباط المطر بالطلول والذي يسهم في رصد الحالة النفسية المعبرة عن مشاعر الألم التي يعيشها القاطن زمناً في تلك البقعة وتجول في أفيائها ذكرياته، ومجيء المطر يكون عاملاً يسهم في محو مشاهد جميلة في ذاكرة العربي الذي انتسب لها انتساباً وثيقاً فضجت روح الشاعر بالرفض لذلك الاندثار والتحلل من تلك الرسوم الجميلة التي اطمأن لها، لتقف بنبات نحو التمسك بالحياة عبر تصوير فني، وفي باب آخر نجده يتحدث عن المطر وارتباطه بعادة اعتادت العرب على فعلها في أيام الشتاء الباردة والماطرة من جعل البيوت متقاربة من بعضها البعض ابتغاء الدفء، وهذا يجعلهم أكثر تقارباً لا سيما وهم يتقاسمون الطعام فيما بينهم وهذا التقارب يوطد العلاقات ويزيد لحة التآسر بينهم فتتشئ ألفة ومودة، ويزيد من ذلك أنهم لا يخشون الحاجة أو

الفقر وهم يتقاسمون الطعام بينهم فيصف طرفة ذلك المشهد بأجمل تصوير من الكامل (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ١٣٢-١٣٣):

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ إِذَا	أَزَمَ الشِّتَاءُ وَدُخِلَتْ حَجَرُهُ
يَوْمًا وَدُنِيتِ الْبُيُوتُ لَهُ	فَتَنَى قُبَيْلَ رَبِّعِهِمْ قِرْرُهُ
رَفَعُوا الْمَنِيحَ وَكَانَ رِزْقُهُمْ	فِي الْمُنْقِيَاتِ يُقِيمُهُ يَسْرُهُ
شَرْطًا لَيْسَ يَحْسَبُهُ	لَمَّا تَتَابَعَ وَجْهَهُ عَسْرُهُ
تَلْقَى الْجِفَانَ بِكُلِّ صَادِقَةٍ	ثُمَّ تُرَدُّ بَيْنَهُمْ حَيْرُهُ
وَتَرَى الْجِفَانَ لَدَى مَجَالِسِنَا	مُتَحَيِّرَاتٍ بَيْنَهُمْ سُورُهُ
فَكَأَنَّهَا عَقَرَى لَدَى قَلْبٍ	يَصْفَرُّ مِنْ أَغْرَابِهَا صَقْرُهُ
إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ سَيُذْرِكُنَا	غَيْثٌ يُصِيبُ سَوَامَنَا مَطْرُهُ

إن تجسيد الحديث عن الشتاء والمطر يأخذ بنا نحو فكرة اجتماعية جامعة بين زخات المطر التي تروي الأرض لتتبت العشب وتكتسي بلباس أخضر وهذا يرمز إلى مفهوم الترابط مع الكرم والسخاء وهي مزية عظيمة وخلة كريمة اتصف بها العرب ولطالما تغنوا بتلك العادة في أشعارهم.

وتنوعت صور الحديث عن الطبيعة كفكرة الربط بين المطر ومظاهر أخرى في محيط الشعراء كالارتباط بين المطر والحيوانات التي كانت من محاور حديث الشاعر كالعلاقة القائمة بين المطر والناقة فقد شبه الشعراء جماعات الإبل وكأنها أكوام من الغيوم مشبهين سرعتها بين البطء كسير السحاب أو مسرعة، وكطوع السحاب للريح وأصواتها بهزيم المطر (أبو سويلم، ١٩٨٧م، ص ١٩٣)، وهذا ما وصفه طرفة من الطويل (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ٩٨-٩٩):

فَلَا زَالَ غَيْثٌ مِنْ رَبِيعٍ وَصَيْفٍ	عَلَى دَارِهَا حَيْثُ اسْتَقَرَّتْ لَهُ زَجَلٌ
مَرَّتُهُ الْجَنُوبُ ثُمَّ هَبَّتْ لَهُ الصَّبَا	إِذَا مَسَّ مِنْهَا مِسْكَنًا غُذُمْلًا نَزَلٌ
كَأَنَّ الْخَلَايَا فِيهِ صَلَّتْ رَبَاعُهَا	وَعُودًا إِذَا مَا هَرَّةٌ رَعْدُهُ اخْتَقَلَ

يصور شاعرنا تلك السحب وكأنها نوق عشار والسماء كالناقة والريح هي التي تقوم بحلب الناقة وتدرّ السماء بالخير وهو المطر النقي الذي يسقي الأرض لتزهر ويعم الخير المعمورة.

ومن مشاهد الطبيعة التي حضرت تحت منظار شاعرنا صورة السيل وهو يغرق أحجار الضباب التي لم تستطع الخروج فماتت وطفّت فوق الماء، فرسم طرفة صورة بديعة لذلك المشهد بقوله من الخفيف (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ١٤٠):

وَضَبَابٌ سَفَرَ الْمَاءَ بِهَا	غَرَقَتْ أَوْلَاهُهَا غَيْرَ السَّدَدِ
---------------------------------	--



فَهَيَّ مَوْتَى لَعَبَ الْمَاءِ بِهَا فِي غُثَاءٍ سَاقَهُ السَّيْلُ عُدَدَ
وأحياناً نجده يستثمر مزج صور المطر بالحيوانات ومن تلك الحيوانات التي أخذت
نصيبها في ذلك الوصف الناقه في هذا الارتباط الطبيعي مع المطر، اذ جعلوا من هذا التمازج
صورة لدفعات المطر التي يكون وقتها عشيةً لذلك كانت أكثر قوةً وعنفاً بما يوحي بالمباغته
والمداهمة (أبو سويلم، ١٩٨٧م، ص ١٩٩)، فيقول طرفة في ذكر صورة المطر المقتطفة من صورة
الفرس من السريع (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ١٤٩-١٥٠):

حَمَلْتُ بَرِّي فَوْقَ عَيْرَانَةٍ مُدْمَجَةٍ ذَاتِ جِرَاءٍ سَبُوحٍ
مَرْفُوعُهَا زَوْلٌ وَمَوْضُعُهَا كَمَرٍ غَيْثٍ لَجِبٍ وَسَطٍ رِيحٍ
تَتَّعَبُ بِالْفَارِسِ ثَعْباً كَمَا يَتَّعَبُ بِالْقَرْقَرِ مَاءُ النَّضِيحِ

ومن معتقدات العرب أن الطبيعة مصدر السخاء والهبة فكان افتخار طرفة بصفة الكرم
والبذل وإكرام الضيف، وتمجيد تلك السمة الحميدة أن نفسه تأنف وتأبى أن يكون مسكنه ومستقره
التلاع، ولأنها تصلح أن تكون مكاناً للاستتار، بعكس المكان المرتفع الذي يهتدي إليه
الضيوف ويقصدوه وهذا ما ذكره بقوله من الطويل (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ٤٢):

وَأَسْتُ بِمَخَالِلِ التَّلَاعِ لِيَبْتِئَهُ وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدِ
وهو الذي يقف على السواء من الغني والفقير، فيكرم الفقير ويحنو عليه ويحسن لهم
ويخالط الأغنياء وينادهم (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ٤٥):

رَأَيْتُ بَنِي غَبْرَاءَ لَا يُنْكِرُونَنِي وَلَا أَهْلُ هَذَاكَ الطَّرَافِ الْمُمَدَّدِ
إن استثمار الطبيعة في تصويره يمنح أبياته انسجاماً فنياً وتضفي على عباراته عباقراً
برحيق النسيم لتتشكل صورة من معالم البيئة المتنوعة التي يطالعها ويتحسسها ذوقاً وبراعة.
ويستوقف الليل الذي يشكل سمة فريدة من صور الطبيعة والتي ارتسمت بها أشعار طرفة
فكانت تلك الظاهرة تشكل جزءاً حيوياً في قصائده، فقد كان الليل في مدونته حضوراً مميزاً كغيره
من الشعراء الذين وظفوا هذه الظاهرة وتحدثوا عن أدق التفاصيل التي عكست ارتباطاً فنياً ناجماً
عن تجربة واعية لما يحيط بها، فكان حديثه عن الطبيعة متصلاً بأدق تفصيلاتها لأن الشاعر قد
وهب حساً مرهفاً بوحداث بيئته من صحاري وقلوات وأصوات مسموعة أو أصدائها، فكان يللم
تلك الخيالات بأجمل التصاوير وأبدع التأليف (القيسي، ١٩٧٠م، ص ٢٣٦)، وقد استثمر طرفة
مفهوم الليل بما له ارتباط به لا سيما اللون الأسود فقد كان له صلة بمفاهيم خاصة عند العرب
فهو يمثل الحلكة والعتمة وانعدام الرؤية لذا فُسِّرَ بأنه مشيرٌ للحزن ونذير الشؤم وقد عدّه من
العلماء في المرتبة الأولى في قائمة الألوان (عمر، ١٩٩٧م، ص ١٨٦)، فكان حضور اللون

الأسود عند طرفه كتعبير عن سواد الليل بأنه كأس المنية أو قدح السم الأسود لما حال بينه وبين حبيبته إذ يقول من الطويل (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ١٨٣-١٨٤) :

وَأَزَعَنْ مِثْلَ اللَّيْلِ مَجْرٍ يُثْوِدُهُ أَرَيْبٌ إِذَا مَا سَاوَرَ الْأَمْرَ أَبْرَمَا
شَدِيدُ الْقُوَى ضَخْمُ الدَّسِيعَةِ مَقُولٌ أَبِي إِذَا مَا هَمَّ بِالْفَتْكِ أَلْحَمَا
وَرَدْنَا وَقَدْ هَابَتْ مَعْدُ شَدَاتِهِ وَقَدْ رَفَعَ الرَّايَاتِ فِيهَا وَسَوَمَا
بِضَرْبٍ يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ سَكَنَاتِهِ وَطَعَنَ إِذَا مَا مَارَ فِي الْجَوْفِ أَثْجَمَا

كما أن للصحراء أبعاداً شاسعة لها في القابل امتداد واسع في السماء التي تلتهم فيها الشمس ويتلألأ فيها نور القمر والنجوم وهذا ما أثرى ميدان الشعر بصور مختلفة ومعان متعددة انعكس على ما جادت به قرائحهم وتنوع الدلالات التي تحملها تلك الأجرام السماوية في تغلغلها في القصائد، واختلفت تلك الاستعمالات على وفق رؤية الشاعر ونفسيته، لذا فقد ذكر طرفه الشمس للتغزل بمحبوبته فكانت الشمس مصدراً خصباً في التعبير فيقول فيها من الطويل (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ٦٦):

بَدَّلَتْهُ الشَّمْسُ مِنْ مَنَبَتِهِ بَرَدًا أَبْيَضَ مَصْفُوعٍ الْأَشْرُ
وَإِذَا تَضَحَّكَ تُبْدِي حَبِيْبًا كَرِضَابِ الْمِسْكِ بِالْمَاءِ الْخَصِرُ

فثغر حبيبته ينماز ببياض أسنانها وفي هذا دلالة على حسنها وجمالها، وإنما قرن ذلك البياض بالشمس لمكانة وقداسة الشمس في المعتقد الجاهلي بوصفه جرم سماوي مميز بين الكواكب (حسن، ١٩٨٨م، ص ١٢٦) ومن متعدهم وتخيلاتهم أنها تبدل السن الساقط بأحسن منه حتى لتغدو الأسنان ناصعة كاملة الجمال، ويسترسل في غزله وإضفاء ضوء الشمس وشعاعها الجميل الذي يجعل حبيبته تزهر بجمال لافت فعند سقوط أشعة الشمس على ثغرها فتصقله ويتبين جماله للناظر، أما ريقها فيرمز به للدفع وهذا التمازج بين الطبيعة مركزة على الشمس وبين الحبيبة فتنج صورة بديعة من مثل قوله من الطويل (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ٢٦-٢٧):

خَذُولُ ثُرَاعِي رَبْرَبًا بِحَمِيلَةٍ تَتَاوَلُ أَطْرَافَ الْبَرِيرِ وَتَرْتَدِي
وَتَبْسُمُ عَنْ أَلْمَى كَأَنَّ مُنَوَّرًا تَخْلَلُ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصَ لَهُ نَدِي
سَقَّتْهُ إِيَّاهُ الشَّمْسُ إِلَّا لِثَاتِهِ أَسْفَ وَلَمْ تَكْدُمِ عَلَيْهِ بِأَثْمَدِ

بدت أسنان معشوقته أشد لمعاناً وكان الشمس أعارته ضوءها، ومن عادات نسوة العرب تذر الأثمد على الشفاه وهذا يعطي الأسنان لمعاناً أشد (الآلوسي، د.ت، ٣١٨/٢) وبريقاً أنصع، ولم يكتفِ طرفه بوصف ثغر الحبيبة بل انتقل لوصف وجهها بالشمس التي كسته بهاءً وجمالاً وتتخذ لونها من لون الشمس وأن الشمس كأن لها رداءاً أحلته عليها لتزدان بذلك الحسن الفتان وذلك الصفاء النقي، فيقول من الطويل (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ٢٧):



وَوَجْهٌ كَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ رِذَاءَهَا عَلَيْهِ نَقِيُّ اللَّوْنِ لَمْ يَتَّخَذْ
ويستحضر طرفة القمر في حديثه بلمحة شعرية فيها من الاستهزاء والتهمك في هجائه
للملكين قابوس بن المنذر وعمر بن هند حينما قصرا في حمايتهما لجواره لهما بعدما سُرقت إبله
من أرضهما فيقول من الطويل (بن العبد، ٢٠٠٠م، ص ١٦٠-١٦١):
وَكَانَ لَهُمَا جَارَانِ قَابُوسُ مِنْهُمَا حِذَارًا وَلَمْ أُسْتَرْعَهَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَعَمْرُو بْنُ هِنْدٍ كَانَ مِمَّنْ أَجَارَهَا وَبَعْضُ الْجَوَارِ الْمُسْتَعْضَاثِ بِهِ غَرَرُ
وهنا يحاول الشاعر إيصال رسالته بأنه لو استرعاها القمر لرعاها، وهذه دلالة على
الاستهزاء من الملكين والخط من شأنهما لأنهما لم يؤديا حق الجار وحمايته.
الخاتمة:

- وفي ختام هذا الحديث يمكن أن نوجز ما أخذنا بأطرافه من صور ولوحات شعرية متقنة:
- ١ - إن شاعرنا طرفة بن العبد هو شاعر كان في مصاف الشعراء المتقدمين وشهد له كثر بأنه شاعر مبدع متقن في القول الشعري.
 - ٢ - وجد البحث أن طرفة هو شاعر مقل لأنه قتل وهو في مقتبل العمر على الرغم من طرقة القول الشعري في حادثة سنه لكن الحياة من تمد له بأسباب البقاء، فقد ترك خلفه نصوصاً إذا ما قورنت بغيره فهي قليلة، لكنها انمازت بالتقانة والرصانة.
 - ٣ - للطبيعة ارتباط بحياة العربي الجاهلي فهي حياة صحراوية قاسية كثيرة التنقل والترحال بحثاً عن موارد الماء، وهذا التنقل له منعطفات في حياة الشاعر انبثق منه صوراً لما يراه ويحس به حلاوة ومرارة.
 - ٤ - ان الطبيعة العامة للجزيرة العربية بما تحتوته من مظاهر طبيعية ومنها ما خصت به الدراسة الطبيعة الصامتة من أطلال أو رياض أو نبات وأشجار أو ما له تعلق بالسماء كالمطر والرياح والشمس والقمر تسور كالقلادة أمد الشعراء بطاقات تعبيرية للتعبير عما يدور في دواخلهم ووجدانهم ومشاعرهم.
 - ٥ - وجدنا أن لطرفة قدرة على استثمار المظاهر الطبيعية واسقاطها بطريقة يحاكي فيها حالته النفسية وأحاسيسه كتصوير ضوء الشمس ولمعانه بثغر الحبيبة هذا من جانب المتعة والعاطفة، في حين أورد ذكراً للقمر والذي كثيراً ما نقرأ للشعراء أنه رمز للحب والسكنية ومبعث النور والهدوء، فجاء تصويره هنا في باب الهجاء لا في باب العاطفة الفنية والدفع النفسي، وهذا ما وجدناه أيضاً عند تصوير الرياح والمطر الذي أعطى بعداً لمظهر الكرم.
 - ٦ - إن الشعر الجاهلي أرضية خصبة وواحة خضراء تطلب منها ما شئت لا تتضب ودائماً تلق ما تريد من فرائد ونفائس الصور.

المصادر والمراجع:

- ١ - الآلوسي البغدادي. السيد محمود شكري. (د. ت). بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. تصحيح وضبط: محمد بهجة الأثري. (د. ط). دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.
- ٢ - ابن قتيبة. ابو عبد الله محمد بن مسلم. (١٩٨٧م). الشعر والشعراء. قدم له: الشيخ محمد تميم، راجعه. الشيخ محمد عبد المنعم العريان. (ط٣). دار إحياء العلوم. بيروت. لبنان.
- ٣ - أبو سويلم. د. أنور. (١٩٨٧م). المطر في الشعر الجاهلي. (ط١). دار الجيل. بيروت. لبنان.
- ٤ - حسن. د. حسين الحاج. (١٩٨٨م). الأسطورة عند العرب في الجاهلية. (ط١). المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان.
- ٥ - الحموي الرومي البغدادي. للشيخ الامام شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت بن عبد الله. (١٩٧٧ م). معجم البلدان. (د. ط). دار صادر. بيروت. لبنان.
- ٦ - الرباعي . د. عبد القادر. (١٩٨٠م). الصورة الفنية في شعر أبي تمام. (ط١). منشورات جامعة اليرموك. أربد. الأردن.
- ٧ - الشايب، أحمد. (١٩٩٤م). أصول النقد الأدبي. (ط ١٠). مكتبة النهضة المصرية.
- ٨ - الشنتمري. شرح الاعلام. (٢٠٠٠ م). ديوان طرفة بن العبد. تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال. (ط٢). المؤسسة العربية. بيروت. لبنان.
- ٩ - عيسى. عبد العزيز محمد. (د. ت). الأدب العربي في الأندلس. (د. ط). مطبعة الاستقامة.
- ١٠ - عمر. د. أحمد مختار. (١٩٩٧ م). اللغة واللون. (ط٢). عالم الكتب. القاهرة. مصر.
- ١١ - الفاخوري. حنا. (١٩٨٦م). الجامع في تاريخ الأدب العربي. (ط١). دار الجيل. بيروت. لبنان.
- ١٢ - قطب. محمد. (د. ت). منهج الفن الاسلامي. (ط٦). دار الشروق. بيروت.
- ١٣ - قناوي. عبد العظيم. (د. ت). الوصف في الشعر العربي. (د. ط). مطبعة مصطفى البابي الحلبي. مصر.
- ١٤ - القيسي. د. نوري حمودي. (١٩٧٠م). الطبيعة في الشعر الجاهلي. (ط١). الشركة المتحدة للتوزيع. بيروت. لبنان.



Sources and references:

- 1 – Al-Alusi Al- Baghdadi. Sayyid Mahmoud Shukri.(n.d). Reaching the goal in knowing the condition of the Arabs Correction. (n.d). Muhammad Bahjat Al- Athari. Dar Al-ilmiyyah. Bairut. Lebanon.
- 2 – Ibn Qutaybah. Abu Abdullah Muhammad Bin Muslim.(1987AD). poetry and Poets. Introduced by. Sheikh Muhammad Tamim. Reviewedby. Sheikh Muhammad Abd Al-Mun'im Al- Arryan.(3ed.ed) Dar ihya' Al-Ulum, Bairut. Lebanon.
- 3 – Abu Suwailm.Dr. Anwar. (1987AD). Rain in pre-Islamic poetry. (1st ed). Dar AL-Jeel. Bairut. Lebanon.
- 4 – Hassan. Dr. Hussein Al- Hajj.(1988 AD). The Myth Among the Arabs in the pre – Islamic Era. (1st ed).University Foundation for Studies. Publishing and Distribution. Bairut. Lebanon.
- 5 – Al Hamawi Al- Rumi Al –Baghdadi. by Sheikh Imam Shihab Al-Din Abu Abdullah Yaqut bin Abdullah. (1997AD). Dictionary of Countries(n.d). Dar Sadir. Bairut. Lebanon.
- 6 – Al- Rubai. Dr. Abdul Qader. (1980AD). The Artistic in Abu Tammam's poetry.(1st ed). Yarmouk University Publications. Irbid. Jordan.
- 7– Al- Shaib. Ahmed.(1994 AD). principles of Literary Criticism, (10th ed). Nahdet Misr Library.
- 8 – Al-Shantamari. Explanation of Al-A'lam.(2000 AD). Diwan of Tarafa Bin Al-Abd. edited by. Durya Al-Khatib and Lutfi Al-Saqqal, (2nd ed). Arab Foundation. Bairut. Lebanon.
- 9–Issa.Abdul Aziz Muhammad.(n.d). Arabic Literature in Andalusia. (n.d). Al-Istiqamah press.
- 10 – Omar. Dr.Ahmed Mukhtar.(1997AD). Language and color.(2nd ed).Alam Al-kutub.Cairo. Egypt.



- 11 – Al-Fakhouri. Hanna.(1986AD). The Comprehensive History of Arabic Literature.(1st ed) Dar Al-Jeel. Bairut. Lebanon.
- 12 – Qutb.Muhammad.(D.T). The Methodology of Islamic Art. (6th.ed). Dar Al-Shorouk. Bairut.
- 13 –Qanawi.Abdul-Azim.(n.d). Description in Arabic poetry.(n.d). Mustafa Al- Babi Al- Halabi Press. Egypt.
- 14 – Al-Qaisi. Dr. Nouri Hamoudi.(1970AD). Nature in Pre-Islamic poetry.(1st ed). United Distribution Company. Bairut. Lebanon.